جرأة الاعتزاز بتراثنا

إلى أبنائنا المحبوبين الكهنة والمؤمنين التّابعين للكنيسة الملكيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة:
سلام في المسيح ربّنا، مقرون بأطيب التحيّات والدّعاء.

المسيح وُلد فمجّدوه!

بفرح عظيم نحيّيكم في هذا اليوم المبارك الذي تجسّد فيه ابن الله الوحيد - إلهنا الذي قبل الدّهور - فاتّخذ طبيعتنا البشريّة وظهر لنا كطفل جديد. إنّها لفرحة عظمى أن نتذكّر هذا الحدث الجلَل الذي يؤثّر في حياة كل انسان آت إلى العالم، وأن نمجّد المسيح مُشيدين بمحبّته للبشر، ومردّدين قول آباء المجمع النّيقاويّ إنّه :" من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السّماء، وتجسّد بقدرة الرّوح القدس من مريم العذراء، وصار إنسانًا."
ولو كان لنا أن نورد أجمل الصّلوات والأناشيد والنّصوص التي وضعتها الكنيسة الشّرقيّة تمجيدًا لحضور الربّ فيما بيننا، لملأنا مجلّدات كاملة. إنّما أكتفي بهذا النّشيد المقتضَب من خدمة غروب عيد البشارة:
" رغب آدم في أن يصير إلهًا، فأكل من الثّمرة المحرّمة وسقط. فصار الله إنسانًا لكي يعلّم آدم كيف يتألّه."

تراثنا الفريد

إنّ المؤلّفات الفريدة بغناها الفكريّ، التي وضعها آباؤنا القدّيسون، هي صوت أجدادكم، وأسماؤهم معروفة في أرجاء العالم المسيحي: أثناسيوس الاسكندريّ، باسيليوس الكبير، الغريغوريوسان (اللاهوتي والنّيصيّ)، يوحنّا الذّهبيّ الفم، يوحنّا الدّمشقيّ وكثير غيرهم. نحن وحدَنا لنا الحقّ في القول إنّهم لحم من لحمنا وعظم من عظامنا. إنّهم لنا بأصدق ما لهذه الكلمة من معنى. عاشوا في وطننا الأصليّ وأمسى التّراث الفكريّ الغنيّ الذي خلّفوه لنا، مُلْكًا تفخر به الكنيسة الجامعة شرقًا وغربًا. ولا ريب في أنّنا أحقّ الورثة لهذا الكنز الرّوحيّ الذي لا يقدَّر بثمن، لأنّنا حفدتهم، وأبناء الأرض التي أنجبتهم.
لكن مهما صحّ هذا القول، فنحن لا نعيش في الماضي بل في الحاضر. من هنا التّساؤل: لماذا نبذل كلّ هذه الجهود للمحافظة على تراث قديم، مضى عهده منذ زمن طويل، لا سيّما وإننا أقليّة صغيرة داخل الكنيسة الكاثوليكيّة؟ وبما أننا نعيش الآن في الولايات المتحدة، فلماذا لا نتبع الأغلبيّة الكاثوليكيّة ونصبح جزءً من اللاّتين؟ تلك هي الأسئلة التي غالبًا ما نسمعها، ولا بدّ لنا من الردّ عليها.
ولعلّنا نجد أفضل جواب في تعليم المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ الذي جاء فيه:
"ان التّاريخ والتّقليد والمؤسّسات الإكليريكيّة الكثيرة، تُثبت بجلاء ووضوح مدى فضل الكنائس الشّرقيّة على الكنيسة الجامعة. لذا، على جميع المنتمين إلى الطّقوس الشّرقيّة أن يعلموا أنّ من واجبهم - وفي مقدورهم - صيانة طقوسهم الليترجيّة المشروعة، وطرقهم الخاصّة في الحياة. وأنّ عليهم أن يتمسّكوا بهذا التّراث بكلّ ما أوتوا من ولاء.

رسالتنا إلى الكاثوليك اللاّتين

إنّ مبدأ تفوّق طقس روما (اللاّتيني) ظلّ سائدًا بلا منازع مدّة طويلة ، وقد انتشر إلى أن عمّ الغرب بأسره في القرون الوسطى. فأصبحوا يعتبرون التّقليد اللاّتينيّ، التّقليد الوحيد الكاثوليكيّ حقًّا. وهذا أدّى إلى نوع من الاعتقاد الجامد السّائد عند الكاثوليك الغربيّين، ومفاده أنّ الطريقة اللاّتينيّة هي الطّريقة الوحيدة في العبادة! كما أن الأحداث التي شهدتها القرون المتعاقبة، آلت إلى تعزيز الشّعور بين أتباع الطّقس اللاّتيني بأنّك إن أردت أن تكون كاثوليكيًّا أصيلاً، فعليك أن تكون تابعًا لطقس روما.
غير أنّ المجمع الفاتيكانيّ الثّانيّ وضع حدًّا نهائيًّا لهذه النّظرة الضيّقة إلى الكنيسة، حيث أوضح أنّ الكنيسة لا يمكن أن تنحصر في ثقافة أو أمّة أو حضارة معيّنة، لأنّ ذلك يناقض مبدأ الشّموليّة، وهو أمر جوهريّ في الإنجيل. فكون الكنائس الشّرقيّة أعضاء في الأسرة الكاثوليكيّة، مع ما لهذه الكنائس من عادات وتقاليد مميّزة في جميع نواحي الحياة الكنسيّة، يُثبت إثباتًا حاسمًا، أنّ المسيحيّ يستطيع أن يكون كاثوليكيًّا دون أن يعتنق الطّقس اللاّتينيّ.
والحقيقة أنّ كنيسة روما اللاّتينيّة، كما يشير المجمع إلى ذلك، تعلّمت من الشّرق أكثر من درس منذ أقدم العصور، وذلك في الميدان اللّيترجيّ (كاستخدام اللّغة المحلّيّة، وتناول القربان المقدّس بشكلَيه، والتّعميد بالتّغطيس في الماء). وفي الميدان الإداريّ (القيادة الجماعيّة والسّينودسيّة، ودور الشمّاس الإنجيليّ). وكذلك في الميدان الرّوحيّ. ولا نبالغ إنْ قلنا إنّ الكنيسة الغربيّة "تحتاج" بالمعنى الحرفيّ لهذه الكلمة، إلى كنيسة شرقيّة نابضة بالحياة، لكي تستكمل فهمها للرسالة المسيحيّة في العالم.

رسالة الكاثوليك الشّرقيّين المسكونيّة

فالكنائس الشّرقيّة، بعزمها على صيانة تراثها، ورفضها الذّوبان في سواها، إنّما تؤدّي خدمة جُلّى إلى روما في ميدان آخر من النّشاط الكنسيّ: فامتصاص هذا العدد الصّغير من الشّرقيّين بتلتينهم (أي جعلهم لاتينًا) ليس مكسبًا لروما. بل على النقيض من ذلك، إنّ من شأنه أن يحُول - ربّما إلى الأبد - دون استعادة الوحدة بين الكنائس المنفصلة شرقًا وغربًا. وقد يحمل الجانبَ الأرثوذكسيّ على الاستنتاج أنّ الوحدة مع رمة تؤدّي إلى الامتصاص لا محالة.
لذا ينبغي على الكاثوليكيّ الشّرقيّ أن يبقى وفيًّا لتقليده، وبذلك فهو يهيّئ الجوّ الملائم لوحدة الكنائس. إنّ هذه الرّسالة التي خصّتنا بها العناية الإلهيّة، تفتح أمام الكنيسة الجامعة آفاقًا غير محدودة لتبشّر بالإنجيل جميع الذين يؤمنون بالمسيح، لكنّهم يرغبون في التمسّك بهويّتهم داخل جماعة المؤمنين الكبرى.

استنادًا إلى ما تقدّم، يسهُل علينا أن نجد مكاننا في المجتمعات الأميركيّة المتعدّدة الأطراف ، بكل ما تنطوي عليه من كنائس متنوّعة وفئات دينيّة شتّى. لذا أودّ أن أستشهد بالتّصريح الشّهير الذي أدلى به الطيّب الذّكر البطريرك الملكيّ مكسيموس الرّابع:
"علينا أن ننهض برسالة مزدوجة داخل الكنيسة الكاثوليكيّة: الأولى هي أن نواصل السّعي لنبيّن أنّه لا يجوز اعتبار اللّيتنة والكثلكة لفظين مترادفين. وأنّ الكثلكة يجب أن تبقى منفتحة على كل ثقافة وكل حركة وكل تنظيم يتناغم مع وحدة الإيمان والمحبّة.
و الثّانية هي أن نُتيح بمَثَلنا للكنيسة الأرثوذكسيّة، أن تدرك أنّ وحدتها مع الكنيسة الغربيّة العظمى، أي مع كرسيّ بطرس، يمكن أن تتمّ دون أن تكون مرغمَة على التنازل عن أرثوذكسيّتها أو عن أيّ من الكنوز الرّوحيّة التي ورثها الشّرق من الرّسل والآباء القدّيسين، لا سيّما وانّ هذا الشّرق يبقى منفتحًا على المستقبل بقدر ما يتمسّك بتراثه العريق."

العقليّة المنغلقة خطر على رسالتنا

لم نأتِ بعد على ذِكر الأخطار التي تهدّد كياننا و رسالتنا إلى سائر الكنائس، وأهمّها العقليّة المنغلقة وعمل الإمتصاص.
ففي الانغلاق تصبح الحياة في عزلة، وتحصر عملها في الدّاخل، معتمدة في ذلك على خصائصها العرقيّة وعاداتها الاجتماعيّة. وعليه، تعيش الرعيّة بفضل الغذاء العرقيّ للجماعة. فإذا زال الطّابع العرقيّ، زالت الرعيّة معه.
وسيأتي يوم تزول فيه الخصائص العرقيّة، كاللّغة والفولكلور الشّعبيّ وكثير من العادات. هذا ما سيحدث، لا محالة، بحُكم مرور الزّمن. لذا لا نستطيع أن نتخيّل مجتمعنا الملكيّ مؤلّفًا من جماعات عرقيّة، همّها الأوّل خدمة النّازحين أو السّائرين في ركاب العرقيّة، إلا إذا كنّا نريد لكنيستنا زوالًا مضمونًا.
لذا لا يجوز أن تكون كنائسنا مقصورة على جماعاتنا العرقيّة، بل عليها أن ترحّب بالمواطنين الأميركيّين الذين تجذبهم تقاليدنا، وما تنطوي عليه من جمال يشمل الكنيسة الجامعة بكنوز تراثها المتنوّع

الخطر الثّاني هو الامتصاص

ممّا لا ريب فيه أنّه ينبغي علينا أن نقف قوانا بكاملها لصيانة ثقافتنا الأميركيّة الوطنيّة. علينا أن نتبع النّهج الأميركيّ في الحياة. وعلينا أن نكون أميركيّين في جميع الأمور. لكنّ علينا أيضًا، في الوقت ذاته، أن نصون هذا النّوع الأصيل من المسيحيّة الخاصّة بنا، التي تختلف عن الصّيغة اللاّتينيّة. يجب أن نعي أنّ عندنا ما نعطيه لسوانا، وإلاّ لما كان لوجودنا مبرّر. فمن واجبنا إذَن أن ننمي ونصون تقليدًا دينيًّا نعلم تمام العِلم أنه قادر على إغناء الحياة الأميركيّة، وإلّا لما كنّا أمناء لرسالتنا.
غالبًا ما يكون الذّوبان في القطيع أسهل على المرء من تأكيد شخصيّته. ولا شكّ أنّ ما يلزم من جهد لجعل تقاليدنا تُعطي ثمارها، يقتضي جرأةً وتصميمًا وعزيمةً باطنيّة . أمّا الاستسلام والتخلّي عن تراثنا فأمر سهل، لا سيّما وإنّ تجربة التّخاذُل التي تحملنا على أن نكون كغيرنا تلاحقنا إلى أعماق قلوبنا. وهنا لا بدّ من الاعتراف بأنّ أدهى التجارب هي التي تسوقنا إلى التستّر وراء هويّة مجهولة، بدلا من أن نضطلع بمسؤولياتنا في الكنيسة. لذا نختار طوعًا أن نُمتَصّ عرقيًّا، لكننا نرفض أن نُمتَصّ روحيًّا.
وفي طليعة الوسائل المستعملة لامتصاص الكاثوليك الشرقيّين روحيًّا، ما يسمّى بظاهرة "التّلتين" أو "اللّيتنة" (أي تحويلنا إلى لاتين). وهي تقوم على أن ينسخ الكاثوليك الشّرقيّون لاهوت الكنيسة اللاّتينيّة وممارساتها الرّوحيّة وعاداتها اللّيترجيّة. واللّيتنة تعني ضمنًا إمّا تفوّق الطّقس اللاّتيني، الأمر الذي استنكره المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، وإمّا أنّ اللّيتنة أمر مرغوب فيه، وهذا رأي لا نستطيع أن نأخذ به. فليس من الضّروريّ أن نعتنق مراسم الطّقس اللاّتينيّ لنُثبت كاثوليكيّتنا، فضلًا عن أنّ ذلك خرق لوحدة الكنيسة. فكما قدّمنا أعلاه، إنّ التخلّي عن هويّتنا يشكّل خيانة لرسالتنا المسكونيّة، بل هو حقًا خيانة للكنيسة الكاثوليكيّة.
لهذا السبب يحاول كثير من أبناء رعايانا العودة إلى ممارسة التقاليد الشّرقيّة حسب أصولها. وقد اقتضى ذلك إعادة تزيين كنائسنا والتخلّي عن بعض العادات الدّخيلة التي نشأ عليها كثيرون من أبنائنا. وفي بعض الأماكن حاول كهنتنا تطبيق قرار المجمع الفاتيكاني الثّاني في هذا الصّدد، فعارضهم بعض أبناء الرعيّة. بينما تردَّدَ بعض الكهنة الآخرون أن يسيروا في هذا الاتّجاه، تلافيًا لحدوث انقسام أو إثارة خلاف في الرعيّة. فعلينا جميعًا أن ندرك أنّ الكنيسة الشّرقيّة - إذا تلتّنت - لا تستطيع إلاّ أن تؤدّي شهادة مزيّفة، لأنّ اعتناقها اللّيتنة سيكون برهانًا دامغًا على أنّ الطّقس اللاّتيني والكثلكة مترادفان، لا فرق بينهما.

فلكي نكون منفتحين على الآخرين، ولنتمكّن من اتّخاذ المكانة التي تحقّ لنا على صعيد الكنيسة الأميركيّة، يجب علينا أوّلا أن نعي هويّتنا تمام الوعي. لأنّه يتعذر علينا أن نساهم على نحو يُذكَر في بناء صرح المجتمع الوطنيّ، إلّا إذا كنّا نتميّز عن سوانا. فعلينا أن نكون ما نحن، ليكون لنا ما يبرّر وجودنا.

الامتنان لآبائنا

إنّ الذين نزحوا من أوروبا الغربيّة إلى الولايات المتحدة الأميركيّة لم يبذلوا من الجهد ما بذله آباؤنا ليتكيّفوا وطريقةَ الحياة الأميركيّة. فقد وجد المغترب الشّرقيّ ذاته في محيط يختلف تمام الاختلاف عمّا ألفه. وما أشدّ التّجربة التي تعرّض إليها ليطرح عنه تراثه كاملًا وينتحل هويّة غريبة. لذا لا بدّ لنا أن نتذكّر بامتنان آباءَنا وأجدادنا، والكهنة الذين رافقوهم من العالم القديم لإنشاء ما لنا من مؤسّسات في أرجاء هذه القارّة المترامية الأطراف. كما أنّ أحفادهم أجادوا هم أيضًا ما صنعُوا. فغالبًا ما شيّدوا كنائس رائعة بمساعدة الأساقفة اللّاتين. أمّا اليوم فقد انتقلنا إلى جيل من الكهنة الفتيان المولودين في أميركا، الذين تقع على كاهلهم مهمّة إتمام العمل الذي بوشر قبلهم. أجَل، إنّ عددهم لا يزال قليلًا، لكنْ لنا الأمل الوطيد أنّه سينمو.

ولا يسعنا هنا إلّا ان نُعرب عن خالص الشكر والامتنان للأساقفة الكاثوليك اللّاتين، الذين حرصوا على صيانة تراثنا في وقتٍ لم يكن لدينا فيه أساقفة ملكيّون على هذه السّواحل. وإذ نقول ذلك، إنّما نفكّر بنوع خاص في الطيّب الذِكر الكردينال رتشارد كوشنغ (Richard Cushing) الذي كان بلا منازع أعظم المحسنين إلى كنيستنا في الولايات المتّحدة. فبفضل ما كان يتحلّى به من انفتاح ومحبّة وغيرة رسوليّة، ساهم أوّلا في إقامة أكسارخوسيّتنا، ثمّ ما برح يمدّها بالمساندة المعنويّة والماديّة بعد إنشائها. لذا أمَرْنا بإقامة قدّاس احتفاليّ سنويّ في كاتدرائيّتنا تخليدًا لذكره.

نظرة إلى المستقبل

ليست هذه الرّسالة الرعويّة بالمحلّ المناسب لتفصيل ما ننهض به حاليًّا من مشاريع. لذا نكتفي بذكر بعضها فقط:

وضع برنامج تربويّ أبرشيّ للتّنشئة الدّينيّة للكبار والصّغار. ووضع نصّ موحّد مقرون بالعلامات الموسيقيّة للّيترجيّة الإلهية، على أن تتبعه نصوص مماثلة أخرى لسائر الخدمات الدّينيّة، لا سيّما الأسرار المقدّسة. وتأليف كتيّب أبرشيّ عن كنيستنا، سيُسعِدنا أن نقدّمه قريبًا إلى المؤمنين والأصدقاء. وإنشاء مجلّة دوريّة ستصدر في القريب العاجل. ومشاطرة مسؤوليّاتنا عمومًا مع المؤمنين التّابعين لرِعايتنا، بتأليف مجلس للرعيّة في كلّ كنيسة. ورسامة شمامسة إنجيليّين ناشطين، إلى غير ذلك من المشاريع اللّازمة.

وقد أدرجنا في طليعة قائمة الأولويّات رعايةَ الشّبيبة، إذْ لا غنى لنا عن مشاركة النّشء الجديد. فممّا لا ريب فيه أنّ مساعينا إذا خلَت من الشّبيبة، ذهبَت كلّها أدراج الرّياح، وزالت كنائسنا من الوجود. لذا نتطلّع إلى الشّروع في البرنامج الأبرشيّ لرِعاية الشبيبة في القريب العاجل.

الواقع أيضًا أنّنا لا نتواصل حاليًّا إلّا مع عدد قليل من أبنائنا الملكيّين. أمّا أغلبيّتهم فلا تزال في عالم الغيب. ونحن كالرّاعي الصّالح الذي يهمّه أمر القطيع كلّه، نتساءل ماذا يمكن أن نفعل للاتّصال بهم وخدمتهم. لذا نقوم حاليًّا بالدّراسات اللّازمة لمعالجة هذا الوضع، على أمَل أن نشملهم برِعايتنا حيثما أمكن.

هذا، وكم كان فرحنا عظيمًا عندما سمعنا مؤخّرًا المطران مارك هورلي (Mark Hurley) أسقف مدينة سانتا روزا في كاليفرنيا يقول: "في كثير من أبرشياتنا يحتاج المؤمنون الشّرقيّون إلى كنائس خاصّة بهم. وانّ من واجب الأساقفة اللّاتين أن يساندوهم، حِرصًا على الطّقوس الشّرقيّة العريقة المقدّسة."

ثمّ دعا الأساقفة الكاثوليك الشّرقيّين العاملين في أميركا إلى تأليف رعايا في هذه البقاع "لتستمرّ إفادة الكاثوليك الغربيّين من خبرة إخوتهم الشّرقيّين، وهكذا تستكمل الكنيسة الكاثوليكيّة شموليّتها."

خواطر ختاميّة

أبنائي المؤمنين الأحبّاء، كونوا صفًّا واحدًا في محبتكم للمسيح. كونوا روحًا واحدة وقلبًا واحدًا مع كهنتكم في محبّة بعضكم بعضًا، لأنّ هذه الوحدة في المحبّة هي السبيل الوحيد لتمجيد الله.

وفي هذا اليوم المبارك الذي تلتئم فيه أُسرة الله حول المذود، نشمل في صلاتنا بكامل الاحترام والمحبة، قداسة البابا بولس السّادس، وغبطة بطريركنا مكسيموس الخامس، وسائر الإخوة الأساقفة، سواء أكانوا تابعين لكنيستنا أم للأسرة الكاثوليكيّة الجامعة. لهم جميعًا نتمنّى عيدًا مباركًا، سائلين الله أن يكون عيد الميلاد لجميعنا فاتحةَ تحوّل إلى صورة ابن الله المتأنّس، الذي ارتدى ضعفنا البشريّ، ليُلبسنا حلّة الخلود، وليضيء بنور وجهه طبيعتنا البشريّة.

بهذه المشاعر وهذه الابتهالات، أستمطر عليكم، إخوتي المؤمنين الأعزّاء، وعلى عائلاتكم، أوفر البركات من لدن ربّنا يسوع المسيح.

+ المطران يوسف الطّويل
في 25 كانون الأوّل/ ديسمبر 1970

ملاحظة: إنّ الطيّب الذِكر، المطران يوسف الطّويل، رئيس أساقفة الرّوم الملكيّين الكاثوليك السّابق في الولايات المتحدة الأميركيّة، كتب هذه الرسالة الرعويّة لمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح للعام 1970. فكانت بمثابة أوّل خطاب رعويّ وجّهه إلى المؤمنين بعدما أصبح أسقفًا على أميركا. فتناقلت الصّحف ووسائل الإعلام رسالته التي ظهرت أيضًا في مجلة "دياكونيّا" - المجلّد 6 - العدد 1- للعام 1971. والجدير بالذّكر أنّ كثيرًا من الذين يحبّون الكنيسة الشّرقيّة ويحترمونها، ما برحوا يستشهدون بتلك الرّسالة الرعويّة. فهي لاتزال تجد تجاوبًا حارًّا في القلوب حتى يومنا هذا.

جرأة الاعتزاز بتراثنا

للطيب الذكر المطران
يوسف الطويل
الرئيس السابق لأساقفة الروم الكاثوليك
في الولايات المتحدة الأميركية

1989/12/12 - 1970/15/3

مكتب الخدمات التربويّة لأبرشيّة نيوتن الملكيّة
http://melkite.org/
مقتبسة من مجلة "الحكمة/صوفيا" الرسمية
لأبرشية نيوتن الملكية